

الإستراتيجية العسكرية للإمام المهدي في السُّودان (1881 - 1885) المرتكزات والمتغيرات

The Military Strategy of the Mahdi in Sudan (1881 - 1885)

يهدف هذا البحث إلى تقديم عرض تحليلي للإستراتيجية العسكرية لمحمد أحمد المهدي (1881 - 1885) ضد الحكم التركي - المصري (1821 - 1885) في السُّودان، وذلك ابتداءً من تاريخ إعلان الدعوة المهدية في "الجزيرة أبا" على النيل الأبيض عام 1881، وانتهاءً بتحرير الخرطوم وقتل الجنرال البريطاني غردون باشا عام 1885. وتستند الدراسة في سردها التاريخي ومناقشتها إلى المنهج التاريخي التحليلي الذي يستأنس بمناهج العلوم الاجتماعية الأخرى، ويستمد مادته من الوثائق التاريخية التي صدرت من أنصار المهدية وخصومهم السياسيين آنذاك، مع اصطحاب الواقع السياسي والاجتماعي والاقتصادي الذي تشكلت فيه أحداث الثورة المهدية، والمادة الوثائقية التي تعكس جوانب مختلفة من تاريخها النضالي. وترتكز مناقشة الإستراتيجية العسكرية للإمام المهدي في بُعدها النظري على الأطروحات التي قدّمها الإستراتيجي العسكري الصيني صن تزو في كتابه المعنون: فن الحرب، الذي يمثل أحد الأدبيات المهمة في علم الإستراتيجية العسكرية المعاصر، وكذلك على مفهوم الشخصية الكاريزمية عند عالم الاجتماع الألماني ماكس فيبر، والذي يُساهم في تحليل شخصية محمد أحمد المهدي القيادية وعلاقتها بالإستراتيجية العسكرية التي نُفذت على أرض الواقع.

Abu Shouk offers an analytical review of the military strategy of Muhammed Ahmed al-Mahdi in the 1881 - 1885 against Ottoman-Egyptian rule in Sudan (1821 - 1885). The period begins with the declaration of the "Mahdiyya" from Aba Island on the White Nile in 1881, and ends with the liberation of Khartoum and the killing of British General Gordon in 1885. The study's historical narrative and discussion is based on the analytical method and further integrates methodologies from other social sciences. Its material derives from the historical documents available from both the political supporters and opponents of the "Mahdiyya" at the time, touching on the political, social, and economic reality that formed the events of the Mahdi Rebellion, as well as documentary material that reflects different aspects of its history of struggle. In its theoretical dimension, the discussion of the military strategy of the Mahdi focuses on the suggestions made by the Chinese military strategist Sun Tzu in The Art of War, which is a key work for modern military strategy. It also considers the concept of the charismatic personality in the work of the German sociologist Max Weber, which helps analyse the personality of Mohammed Ahmed al-Mahdi as a leader and its relationship with the military strategy he implemented on the ground.

* أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة قطر.

مقدمة

يُعدُّ مصطلح إستراتيجية من المصطلحات القديمة المشتقة من الكلمة الإغريقية Strategos، والتي تعني الجيش، أو الحشود العسكرية، أو توصيف فن الحرب وإدارتها. وتطوّر المصطلح إلى علم يُقصد به التخطيط المستقبلي الراشد الذي يهدف إلى تحقيق غايات عليا وفق وسائل وأدوات إجرائية وعملية مُحدّدة. وظهرت معالم الإستراتيجية العسكرية في أول تجلياتها في كتاب صن تزو Sun Tzu المعنون: **فن الحرب**⁽¹⁾، الذي أُلّفه في القرن السادس قبل الميلاد، ثم تُرجمَ الكتاب إلى اللغة الفرنسية عام 1782م، وظهرت أول ترجمة إنكليزية له عام 1905، وبعد ذلك أضحى الكتاب يمثل مرجعيةً عسكريةً في فن الحرب وإدارتها، وكان من ضمن الأدبيات العسكرية التي استأنست بها الإدارة الأميركية في عملية "عاصفة الصحراء" ضد الجيش العراقي الغاصب لدولة الكويت في العقد الأخير من القرن العشرين⁽²⁾. ويهدف هذا البحث إلى دراسة الإستراتيجية العسكرية للإمام محمد أحمد المهدي (1844 - 1885م) في السودان وتحليلها، وسيكون إطاره النظري مستندًا إلى بعض الإشارات الإستراتيجية الواردة في كتاب صن تزو، والتي تربط فن الحرب بخمسة عوامل ثابتة، هي: النظام العام، والقيادة العسكرية، والقانون الأخلاقي للجند، وتضاريس الأرض، وطبيعة المناخ⁽³⁾. ومن جانب آخر، يستند هذا الإطار النظري إلى مفهوم الشخصية الكاريزمية عند ماكس فيبر Max Weber⁽⁴⁾، ومدى تطابق مواصفاتها مع شخصية المهدي الذي استطاع أن يوظف حزمة من الخطط العسكرية في حربه ضد الحكم التركي في السودان. وهنا تبرز جملة من الأسئلة الموضوعية التي تُساعدنا في استيعاب العلاقة الجدلية التي نشأت بين الإمام المهدي والمجتمع السوداني الذي عاش فيه آنذاك، وفي قياس مدى كفاءة الإمام المهدي القيادية في توظيف الاعتبارات المعنوية والمعطيات المادية لخدمة إستراتيجيته العسكرية وتطبيقها على أرض الواقع. وتطرح الدراسة أسئلة من قبيل: ما مرتكزات تلك الإستراتيجية التي استخدمها ضد الأتراك وأعوانهم من السودانيين والمصريين لتحقيق أهدافه الرامية لتغيير نظام الحكم التركي - المصري (1821 - 1885)؟ وهل كان موقعه القيادي موقعًا محوريًا بالنسبة إلى تلك المرتكزات وتفعيلها في سبيل تحقيق أهدافه الإستراتيجية العليا؟ وإلى أي مدى تبيّن تلك المرتكزات الفكرية والعسكرية قدرة الإمام المهدي على تطويع الظروف البيئية والاجتماعية المحيطة لإنجاز المتطلبات الإجرائية والعملية اللازمة لتنفيذ مشروعه الثوري - الإصلاحية في السودان؟ وهل كانت إستراتيجيته العسكرية رصيدًا لبناء الدولة المهديّة (1885 - 1898) وعلاقتها الخارجية، أم كانت خصمًا من مرحلة البناء والتأسيس التي أعقبت انتصارات الثورة في الخرطوم عام 1885؟

الإطار النظري لإستراتيجية المهدي العسكرية

تعد الإستراتيجية العسكرية جزءًا من الإستراتيجية العليا التي تتبناها أي حكومة أو كينونة سياسية معارضة لها؛ وذلك لتحقيق هدفٍ معينٍ على المدى البعيد في ضوء الإمكانيات العسكرية المتاحة، والوسائل الحربية المستخدمة. وبهذه الكيفية تجري عملية عسكرية

1 Sun Tzu, *The Art of War*, Translated by Lionel Giles (London: The Puppet Press Classic, 1910).

2 صن تزو، **فن الحرب**، تقديم وتعليق أحمد ناصيف (حلب: دار الكتاب العربي، 2010)، ص 5.

3 Tzu, p. 35.

4 Max Weber, *Economy and Society*, Translated by Gunther Roth and Claus Wittich (New York: Bedminster, 1968), p. 241.

يقصد بمصطلح كاريزما Charisma المواهب الجاذبة الساحرة التي يتفرد بها القادة والزعماء التاريخيون، وقد تُوهِبَ أيضًا لأفراد يتحلون بسمات تجذب الأفراد إليهم وتجعلهم قريبين إلى قلوب الناس. وقد تطوّر هذا المصطلح من التراث المسيحي الديني إلى الإطار السياسي بفضل إسهامات عالم الاجتماع الألماني ماكس فيبر، والذي وصف المصطلح بأنه "موهبة-ساحرة" يحظى بها أفراد غير عاديين من القادة والزعماء، والذين يُحدث خطابهم العام فعل السحر في قلوب الجماهير المؤيدة لهم. وقد وضع خمسة شروط للقيادة الكاريزمية، تتمثل في: الاستقامة الأخلاقية والمناقب السلوكية الجاذبة للقائد الكاريزمي مع وجود أزمة سياسية أو اجتماعية أو اقتصادية في المجتمع الذي يعيش فيه، وأن يكون لذلك القائد رسالة طموحة بشأن حل الأزمة الماثلة، والتخطيط لمستقبل أفضل يلامس تطلمات مناصره، وأن يفلح في تجييش المجتمع خلف رسالته الإصلاحية، ويرافق ذلك التجييش سلسلة من النجاحات المشهودة والمنسوبة لصاحب الرسالة في مجال الإصلاح لتجاوز تحديات الأزمة القائمة، أيًا كان شكلها. وبذلك يخلص ماكس فيبر إلى أنّ القائد الكاريزمي ابن بيئته ومجتمعه، لكنه يختلف عن الآخرين بسلوكه الجاذب والمتفرد، واستيعابه الشامل لقضايا المجتمع وحاجاته، وقدرته التنظيمية على تفعيل تلك الاستجابة المجتمعية في شكل برنامجٍ إصلاحي، يتحدى الوضع القائم، وي طرح البدائل التي ترسم الطريق لتحقيق غايات منشودة ومحفوظة بالمخاطر والابتلاءات.

الصراع السياسي والفكري وفق خيارات تتدرج بين الهجوم العنيف المباشر أو غير المباشر ضد الخصم، أو الموقف الدفاعي الذي يرمي للحفاظ على الوضع القائم في الساحة السياسية والعسكرية. ولتحقيق أي من هذه الخيارات تُستخدم المناورة العسكرية، موظفةً الأدوات والوسائل الحربية المتاحة لحسم الصراع لمصلحة الأهداف الإستراتيجية العليا. ويُساهم فن المناورة بهذه الطريقة في استيعاب الاعتبارات المعنوية والمعطيات المادية للعدو حسب ظروف الزمان والمكان.

بدأت معالم هذه النظرة الإستراتيجية العسكرية تتشكل في القرن السادس قبل الميلاد، عندما أُلّف الإستراتيجي العسكري الصيني صن تزو كتابه **فن الحرب**، مشيرًا إلى خمسة عناصر رئيسة لإدارة الحرب، وتوظيفها صوب الهدف السياسي الذي لا يتحقق من دونها. ويأتي في مقدمة هذه العناصر القائد العسكري المؤهل الذي يتحلّى بفضائل الحكمة والإخلاص والتفاني في العمل والشجاعة والحزم؛ وذلك في إطار قانون أخلاقي ينظّم علاقته بالجُند، ويجعلهم منضامين لتنفيذ أوامره، وفق نظام عام لتوزيع الرتب العسكرية، وتقسيم الجيش إلى وحدات صغيرة، بما فيها وحدة صيانة الطرق والإمدادات التي تصل إلى الجيش، والتحكم في الإنفاق العسكري. ويوصي أيضًا بالمعرفة التامة بتضاريس الأرض التي يتحرك عليها الجُند، وملامحة المناخ مع تلك التحركات العسكرية والإجراءات الحربية المصاحبة لها. ولا ينسى أهمية المناورة العسكرية بوصفها عاملاً مساعدًا ومهمًا في استخدام الإمكانيات والوسائل العسكرية المتاحة من طرف، وتحقيق الهدف السياسي العام من طرفٍ آخر. ولذلك يصف تزو الحرب بأنها خدعة؛ أي أنّ الجُند عندما يكونوا قادرين على الهجوم يجب أن يظهر العكس، وعندما يكونوا قريبين من العدو يجب أن يشعروهم ببعدهم، وعندما يكونوا بعيدين يجب أن يظهر لهم أنهم على مقربة منه. وكذلك يجب عليهم أن يُقلقوا مضجعه عندما يخلد للراحة، ويفرّقوا بين عناصره عندما يكون متحدثًا، ويهجموا عليه عندما يكون غير مستعدٍ للهجوم⁽⁵⁾. وإلى جانب الخدعة، يرى تزو ضرورة استخدام الجواسيس لجمع المعلومات الاستخباراتية عن العدو، لكنّه يحذّر من الاعتماد المفرط على معلومات الجواسيس التي يجب أن تخضع لمعايير المفاضلة والترجيح بمقارنتها مع المعلومات الاستخباراتية المتوافرة من مصادر أخرى⁽⁶⁾.

وإذا أمعنا النظر في هذه العناصر الخمسة التي رصدها صن تزو، وحلل مفرداتها في إطار العوامل المساعدة الأخرى، نصل إلى أنّ معظم العمليات العسكرية التي نُفذت على صعيد الواقع في العالَمين القديم والوسيط لم تخرج عن هذا الإطار، بما في ذلك الإستراتيجيات العسكرية التي نُفذت في عهد الرسول ﷺ والفتوحات الإسلامية اللاحقة⁽⁷⁾. أما منظر عصر النهضة الأوروبية والعصور التالية، فقد ارتبط مفهوم الإستراتيجية عندهم بالجانب العسكري الذي استند إلى النشاطات الحربية التي قادتها بعض الدول الأوروبية لتسوية نزاعاتها الداخلية، وبسط نفوذها السياسي والاقتصادي خارجيًا، علمًا بأنّ ذلك النفوذ كان مدفوعًا بمخرجات الاقتصاد الرأسمالي الذي يهدف إلى السيطرة على المواد الخام - المتوافرة خارج حدود الدول الأوروبية - والأيدي العاملة الرخيصة، والسوق التجارية الرابحة لتصريف المنتجات الصناعية لتلك الدول الرأسمالية، واستثمار رؤوس أموالها. وبناءً على ذلك، يُعرّف عبد القادر محمد فهمي الإستراتيجية العسكرية بأنها "الاستخدام الفعلي للقوات المسلحة بمختلف صنوفها القتالية عند التلاحم ميدانيًا مع قوات العدو، وأنها تهتم بعملية التحضير والإعداد والتخطيط لكيفية استخدام القوات المسلحة في حرب تخوضها الدولة"⁽⁸⁾. ويفرّق فهمي بين الإستراتيجية العسكرية والعقيدة العسكرية، موضّحًا أنّ الأخيرة تقوم بتوجيه النشاط العسكري "في ضوء الأفكار والتعاليم التي تخص العلم العسكري، وفنون

5 Tzu, pp. 38 - 40.

6 Ibid., pp. 152 - 153.

7 أشار إلى ذلك عبد الغني بن عبد العزيز في أطروحته المقدمة لنيل درجة الماجستير في الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا. لمزيد من التفاصيل، انظر: Abdul Ghani bin Abdul Aziz, The Underlying Factor for the Ascendancy of Muslim Army over its Persian and Byzantine Counterparts (663 - 644 ACE): An Analysis Based on Sun Zi's Art of War, M.A. Thesis, International Islamic University Malaysia, 2006.

8 عبد القادر محمد فهمي، **المدخل إلى دراسة الإستراتيجية** (عمان: دار مجدلوي للنشر والتوزيع، 2010)، ص 41.

الحرب التي تطبقها القوات المسلحة بعد تأمين مستوى متقدم في مجال إعدادها وتدريبها، مما يجعلها قادرة على مجابهة الظروف والأخطار كافة، بهدف تحقيق النصر العسكري عند اشتراكها بأي صراع مسلح⁽⁹⁾. فعملية التمييز بين العقيدة العسكرية والإستراتيجية العسكرية تُعدُّ إضافة مهمة؛ لأنها تفسّر ما أجمله صن تزو عندما تحدث عن دور الحاكم ودور القائد العسكري، مبيّناً أنّ الأول يكون مسؤولاً عن رسم معالم الهدف السياسي العام، والثاني يقوم باستخدام الآلة الحربية تخطيطاً وتنفيذاً لبلوغ ذلك الهدف. ومن أهم الدراسات الإستراتيجية العسكرية التي صدرت في هذا الشأن، دراسة نيقولا ميكافيللي Niccolo Machiavelli (ت. 1527م)⁽¹⁰⁾، وهنري لويد Henry Lloyd (ت. 1783م)⁽¹¹⁾، وكارل كلاوزفيتز Carl Clausewitz (ت. 1871م)⁽¹²⁾، وجميعها تحركت داخل الإطار الذي وضعه صن تزو، مع مراعاة الاختلافات المرتبطة بالزمان والمكان، والاعتبارات المعنوية، والمعطيات المادية لكل دراسة حالة على حدة.

تقودنا هذه التوطئة إلى طرح سؤالين منهجين هما: ما علاقة هذا الإطار النظري للإستراتيجية العسكرية بالشخصية الكاريزمية عند ماكس فيبر؟ وكيف يمكن توظيف طرفي هذه المعادلة النظرية لمناقشة الإستراتيجية العسكرية للإمام محمد أحمد المهدي في السودان؟ تتمثل العلاقة بين طرفي المعادلة النظرية في أنّ صن تزو قد جعل القيادي العسكري في وضع محوري بالنسبة إلى العناصر الأربعة الأخرى الرئيسة المرتبطة بعملية فن الحرب وإدارتها. ووصف القائد العسكري ببعض الصفات التي تقاطعت مع المواصفات التي وضعها ماكس فيبر للشخصية الكاريزمية. فالإطار النظري في شقه الأول نستخدمه لتوطين الإستراتيجية المهدية وتقييمها في إطارها العقدي والعسكري، وشقه الثاني يعيننا في الإجابة عن سؤالين محوريين آخرين هما: هل كان محمد أحمد المهدي شخصية كاريزمية⁽¹³⁾؟ وإلى أي مدى استطاعت شخصيته الكاريزمية أن تؤسس لإستراتيجية عسكرية كان لها الدور الرئيس في نجاح حروب المهديّة ضد الحكم التركي في السودان؟

لا شك أنّ هذا الإطار النظري يُساعدنا في تحليل مرتكزات الإستراتيجية العسكرية للإمام المهدي التي تمثلت في القضاء على الحكم التركي في السودان وإقامة حكم إسلامي بديل، مستنداً في ذلك إلى القرآن والسنة والمنشورات التي أصدرها المهدي حسب مقتضيات الحال. وكذلك يعيننا في مناقشة إستراتيجية المهديّة العسكرية التي ارتبطت بفكرة المهدي المنتظر كإطار عقدي - معنوي، واستمدت فاعليتها العسكرية من الهجرة، والبيعة، والدعوة للجهاد، والإدارة التنظيمية للجند، واستغلال الظروف المناخية وتضاريس الأرض.

العقيدة العسكرية للإستراتيجية المهدية

تبين مجلدات كتاب الآثار الكاملة للإمام المهدي⁽¹⁴⁾ أنّ العقيدة العسكرية للإستراتيجية المهدية كانت مُستمدّة من فكرة المهدي المنتظر الشيعية، والتي تستند إلى بعض الأحاديث المرويّة عن الرسول ﷺ، والآيات القرآنية التي أوّلت في شأن المهدي المنتظر، وظهوره آخر الزمان، ليملاً الأرض عدلاً بعد أن مُلئت ظلماً وجوراً. والفكرة في جوهرها ذات مدلول اجتماعي - سياسي معارض للسلطة الحاكمة، التي يعدها المهديون سلطةً فاسدةً وجائرةً. ولذلك وصف محمد إبراهيم أبو سليم فكرة المهدي المنتظر بأنها "شعار المضطهدين والمغلوبين

9 المرجع نفسه.

10 Niccolo Machiavelli, *The Art of War*, revised edition (Da Capo Press, 2001).

11 Patrick J. Speelman, *War, Society and Enlightenment: The Works of General Lloyd* (Leiden: 2005).

12 Carl von Clausewitz, *The Principles of War*, translated by Hans Wilhelm Gatzke (New York: Courier Dover Publications, 2003).

13 Richard H. Dekmejian and Margaret J. Wyszomirski, "Charismatic Leadership in Islam: The Mahdi of the Sudan," *Comparative Studies in Society and History* 14, no. 2 (March 1972), pp. 193-214.

14 محمد إبراهيم أبو سليم (تحقيق)، الآثار الكاملة للإمام المهدي، 7 مجلدات (الخرطوم: دار جامعة الخرطوم للنشر، 1990 - 1994).

على أمرهم، وجنة موعودة ترضي خيالهم، وتشبع رغباتهم المكبوتة، وطموحاتهم المثالية ... في العدل [المطلق]، والقضاء المبرم على العدو⁽¹⁵⁾. إلا أن المشايخين لهذه الفكرة اختلفوا في تحديد ماهيتها الوظيفية، وتاريخ حدوثها زماناً ومكاناً، والصفات الواجب توافرها في صاحب الدعوة وحامل الرسالة؛ أي المهدي المنتظر. فالتصوفة جعلوا من شخصه قطباً صوفياً، وخاتم دولة مثالية، قوامها الأولياء والصالحون. وأهل السنة أتروا تصويره في شخص مصلي ديني، يعيد للإسلام مجده ونقاؤه الأول، وفق منهاج السلف الصالح وسيرتهم. أما الشيعة الإمامية (الأثنا عشرية) فقد حصروا الفكرة في آل بيت رسول الله ﷺ، ورهنوا ظهورها بالإمام الغائب محمد بن الحسن العسكري، والذي اختفى بعد وفاة والده سنة 874 ميلادية⁽¹⁶⁾.

راجت هذه الفكرة في السودان القرن التاسع عشر للميلاد نتيجة لتصاعد ظلم الحكم التركي (1821 - 1885م) الذي خلق بيئة سياسية واجتماعية صالحة لانتشارها، وكذلك لتداول كتب التراث الإسلامي التي كانت تلمح بتشابه الظروف المواتية لظهور المهدي المنتظر، فضلاً عن قوافل حجاج غرب أفريقيا العابرة للحدود السودانية صوب الأراضي المقدسة، والتي كانت تبشر بظهور المهدي المنتظر في الشروق (أي الشرق). هكذا بدأت الفكرة تتشكل في مخيلة الإنسان السوداني، الذي ظل رافضاً للحكم التركي، وكانت معارضته تنطلق من مسوغات ومصالح شتى، لكنها جميعاً تتفق في معارضة النظام الحاكم، والبحث عن بديل آخر. وفي تلك الأثناء، برز اسم الشيخ محمد أحمد بن عبد الله الذي توافرت له صفات متميزة أهلته لقيادة المجتمع السوداني آنذاك، وتلك الصفات ارتبطت بسلوكه الصوفي الزاهد الذي أكسبه تقدير قطاع عريض من الناس، كما ارتبطت بعلمه الشرعي المالك لناصية الفقه والإفتاء في أمور الحكم والجهاد. وطفت على السطح شخصيته الكاريزمية التي منحها فكرة المهدي المنتظر بُعداً أيديولوجياً قوياً وفاعلاً؛ لأن الفكرة في حد ذاتها كانت شاخصة في مخيلة العقل الصوفي السوداني. لذلك كان الإعلان عن فكرة المهدي من رجل عُرف بالزهد والصلاح، ومعارضته للحكم التركي، إعلاناً سياسياً وأيديولوجياً قوياً الأثر؛ لأنه خاطب أحلام المظلومين بعدل يري تحت سمائه "الذئب مع الغنم"؛ وشحذ أشواق أهل البادية والريف إلى الخلاص من الضرائب التركية الباهظة، وفضاعة جباتها "الباشوزق"⁽¹⁷⁾، وغازل أيضاً تطوعات أولئك الذين فقدوا نفوذهم السياسي، أو الديني، أو التجاري في عهد الحكومة التركية⁽¹⁸⁾. وفي تلك الأثناء، بدأ إعلان الدعوة المهدي في الجزيرة أبا على النيل الأبيض؛ إذ شرع محمد أحمد (المهدي لاحقاً) بالتحرك سراً وسط الأعيان ورجال الطرق الصوفية بمنطقة النيل الأبيض والمناطق المجاورة لها ملتصماً برغباتهم وواضعاً الأساس لدعوته الإصلاحية القادمة. ومن أصدق الشواهد على تلك التحركات السرية، توصيف يوسف ميخائيل القبطي لزيارة محمد أحمد (المهدي) الأولى للأبيض عام 1879، ومخرجاتها السياسية، قائلاً:

الرجل عالم، صاحب علم، زادت محبته في قلوبهم [أي أعيان الأبيض]، وفرحوا به فرحاً شديداً، من شدة تواضعه وحلاوة مقاله، كأنه يسقي في أرض عطشانة حتى غرس محبته في قلوبهم، وجذبهم بمذاكرته، وسحرهم بحسن مقاله. ما ترك أي بيت كبير، ومن له اسم مشهور إلا زاره، كمثل حاج خالد العمرابي، وأولاد ولد العريق، وأولاد عربي، والفكي مكاوي الركابي، وأهل ولد أبو صافية، وخصوصاً

15 محمد إبراهيم أبو سليم، *الحركة الفكرية في المهدي* (الخرطوم: مطبعة جامعة الخرطوم، 1970)، ص 1.

16 لمزيد من التفاصيل، انظر:

Ahmed Ibrahim Abushouk, "The Ideology of the Expected Mahdi in Muslim History: The Case of the Sudanese Mahdiyya, 1881 - 1898," *Pakistan Journal of History and Culture*, vol. xxxi (2009), pp. 43 - 60.

17 "الباشوزق" أو "باشي بوزوق" كلمة تركية معناها الجامح أو الشاذ، وكانت تُطلق في بادئها على العيارين الذين لا مأوى لهم، ثم على فصائل من الجند غير النظاميين الذين يعينون لمساعدة القوات النظامية في بعض المهمات العسكرية والإدارية. وفي السودان يُطلق المصطلح على الجنود غير النظاميين الذين عيّنتهم الحكومة التركية لمساعدتها في بعض الأعمال الضبطية والإدارية.

18 لمزيد من التفاصيل، انظر: نعيم شقير، *جغرافية وتاريخ السودان* (بيروت: دار الثقافة، 1967)، ص 315 - 320؛ وب. م. هولت، *المهدي في السودان*، ترجمة جميل عبيد (بيروت: دار الفكر العربي، 1978)، ص 34 - 49؛ ومحمد سعيد القدال، *الإمام المهدي محمد أحمد بن عبد الله (1844 - 1885): لوحة لثائر سوداني* (الخرطوم: مطبعة جامعة الخرطوم، 1985)، ص 3 - 21.

إلياس باشا أم بربر، وبان النقا الرازقي ... ويلقي عليهم المذاكرة بالدين، ورجب فيهم الرفيع والوضيع، كبير وصغير، وحفر الأساس في كوردفان، وتوجه لمحل إقامته، وعندما يعود يرمي البناء على الأساس⁽¹⁹⁾.

وبذلك عرض يوسف ميخائيل بعض الصفات الكاريزمية للإمام المهدي، وقدّم صورة ذهنية حيّة لمجتمع الأبيض الذي كان مهمياً لقبول الدعوة المهدية، ثم أبرز طرفاً من ملامح الدعوة السريّة للمهدية التي كانت "مشوبة بالحذر والإشارات الباطنية"⁽²⁰⁾، مثل "إقامة الدين، والدخول في العهد المعلوم". ويتجلى ذلك في الرسالة الخطبية التي بعثها محمد أحمد (المهدي لاحقاً) إلى الشيخ محمد الطيب البصير، قائلاً:

لا يخفى عزيز علمكم، أنّ الأمر الذي نحن عليه لا بد من دخول جميع المؤمنين فيه؛ إلا مَنْ هو خالٍ من الإيمان، وذلك مما ورد في حقائق غيبية، وأوامر نبوية، أوجبت لنا مهمات صرنا مشغولين بها ... الأمر قد دهمنا من الله ورسوله، عاهدني على القيام به نحو عشرين ألفاً. والبشارة من الله، ومنه ﷺ، أنّ أصحابنا في تقويم الدين مئتان وأربعون ألفاً، وستون ألفاً من الأولياء الميتين، وملائكة لا يعلم عددهم إلا الله تعالى، فسبحان من يظهر قدرته في أضعف خلقه. وهذا الأمر مكتوم لا يظهر إلا بحلف وعهود على كتفه حتى يظهره الله تعالى⁽²¹⁾.

وبهذا المدخل الصوفي وإشاراته الضمنية بشّر الشيخ محمد أحمد بمعالم دعوته المهدية، وشجّع الأعيان على الالتحاق به في الجزيرة أبا قبل إعلان الدعوة. ولذلك يقول للشيخ محمد الطيب البصير: "فالسعيد من بادر إلى اغتنام أوائله بأهله وأولاده وأمواله، ومن لم ينفذ هذا الأمر فهو المعزول الذي حكم الله ورسوله عليه بالحد المنقول ... وكل ذلك تلويحات الأسرار لا تباح، وهذا مما يكتنم وجوباً، ولا يطلع عليه إلا أنت، حتى يظهر الله الأمر"⁽²²⁾.

وفي رسالة لاحقة يصرّح الشيخ محمد أحمد بأمر مهديته للشيخ محمد الطيب البصير، مستنداً إلى حضرة نبوية دار فيها حوار بين الفقيه عيسى والرسول ﷺ، فقد قال السلف للخلف: "شيخك هو المهدي"، فردّ عليه الفقيه عيسى قائلاً: "إني مؤمن بذلك". فيقول الرسول ﷺ: "من لم يصدق بمهديته كفر بالله ورسوله". ثم يسأله الفقيه عيسى: "يا سيدي يا رسول الله الناس من العلماء يستهزؤون بنا، والخشية أيضاً من الترك، فيقول ﷺ: والله والله إن قوي يقينكم، إن أشرتم بأدنى قشة تنقضي حاجتكم". ثم يتدرّج الشيخ عبد الله (ربما يكون الخليفة عبد الله لاحقاً) الحوار مع الشيخ الطيب قائلاً: "نحن مصدقون بمهدية شيخنا، والناس ليسوا مصدقين"، فيقول الشيخ الطيب: "إنّ شيخك حين ولادته عرفوه أهل الباطن والحقيقة أنه المهدي، فما تمّ الأربعين يوماً عرفته النباتات والجمادات بأنه المهدي"، ثم يقول الشيخ الطيب: الطريقة فيها الذل، والانكسار، وقلة الطعام، وقلة الشراب، والصبر، وزيارة السادات، فتلك ستة؛ والمهدية أيضاً فيها ستة: الحرب، والحزم، والعزم، والتوكل، والاعتماد على الله تعالى، واتفاق القول. فهذه الأتنتا عشرة لم تجتمع لأحد إلا لك"⁽²³⁾. والإشارة هنا إلى محمد أحمد المهدي.

تشكّل هذه النصوص المختارة الأبعاد الأساسية لعقيدة محمد أحمد المهدي العسكرية؛ إذ تمّ بموجبه تصنيف كل مَنْ لم يؤمن بالمهدية بأنّه كافر، بذلك يستباح دمه، وعرضه، وماله؛ وعلى النسق ذاته صنّف الحكام والمحكومون في السودان إلى معسكرين: معسكر

19 يوسف ميخائيل، مذكرات يوسف ميخائيل عن أواخر العهد التركي والمهدية في السودان، تحقيق أحمد إبراهيم أبو شوك (أم درمان: مركز عبد الكريم ميرغني الثقافي، 2004)، ص 43 - 44.

20 القدال، ص 65.

21 خطاب من المهدي إلى محمد الطيب البصير، ذو القعدة 1297هـ/ 5 تشرين الأول/ أكتوبر - 4 تشرين الثاني/ نوفمبر 1880م، أبو سليم (تحقيق)، الآثار الكاملة، ص 71.

22 المرجع نفسه، ص 72.

23 خطاب من المهدي إلى محمد الطيب البصير، غرة شعبان 1298هـ - 30 حزيران/ يونيو 1881م، أبو سليم (تحقيق)، الآثار الكاملة، ج 1، ص 78.

المهدية ومعسكر المعارضين لها، أو عالم المهديّة وعالم التركيّة، كما يرى القدال⁽²⁴⁾. وبناءً على هذا التصنيف الإقصائي في الصراع، استندت عقيدة المهديّة العسكريّة إلى مبدأين رئيسيين؛ أحدهما صوفي النزعة يقوم على الذل والانكسار وقلة الطعام وقلة الشراب والصبر وزيارة السادات، والآخر عسكري التوجه يرتكز على الحرب ولوازمها المعنوية والنفسية المتمثلة في الحزم والعزم والتوكل والاعتماد على الله تعالى واتفق القول. ويضاف إلى ذلك أنّ عقيدة المهديّة العسكريّة، حسب زعم صاحبها، كانت مسنودة من الله سبحانه وتعالى، ورسوله ﷺ، وأعداد غير معلومة من الأولياء والصالحين والملائكة. ويعني ذلك أنّ انتصار المهدي على أعدائه ليس محل شك أو تضليل، بل يجب على العقلاء الالتحاق بالمهدية، والتخلّص من ثلاث خصال ذميمة، هي "الحسد، والكذب، وترك الصلاة"⁽²⁵⁾. وبهذه النظرة الشاحذة لهمم الأتصار، استطاع المهدي أن يصنع نظاماً عسكرياً وسلوكياً مُحكماً بينه وبين أنصاره لتحقيق مستلزمات الحرب، المتمثلة حسب رؤية صن تزو، في "النظام العام"، و"القانون الأخلاقي للجُند"، و"القيادة العسكريّة" المؤهلة. وتأسيساً على ذلك، يبقى هناك سؤال جوهري هو: ما المرتكزات الإستراتيجية التي أسست عليها عقيدة محمد أحمد المهدي العسكريّة؟

الإستراتيجية العسكريّة للإمام المهدي: المرتكزات والمتغيرات

تقوم مرتكزات الإستراتيجية العسكريّة للإمام المهدي ومتغيراتها على حزمة من القواعد التنظيمية المستقاة من سيرة الرسول ﷺ وأدبيات المتصوفة، والملامسة في كلياتها لمتطلبات فنون الحرب وإدارتها حسب رؤية صن تزو. فالتغير في الإستراتيجية العسكريّة المهديّة كان يتمتع بحرية حركة سابقة ولاحقة للمرتكز الثابت، والذي يهدف إلى تحقيق الهدف السياسي العام للحركة المهديّة. وكانت المرتكزات والمتغيرات مجتمعة تمثل الضوابط التنظيمية الناضجة لطبيعة العلاقة التي نشأت بين الإمام المهدي وجماهير الأتصار التي كانت مسحورة بقيادته الكاريزمية. ونعرض في الفقرات الآتية تلك المرتكزات والمتغيرات المصاحبة لها بالتفصيل، ثم نناقش طبيعة الوشائج التنظيمية التي جمعت بينها، وفعلت حركتها في إطار الغايات التي تتشدها الثورة المهديّة.

الهجرة

تأتي الهجرة في مقدمة المتغيرات التي استندت إليها إستراتيجية المهدي العسكريّة، وكما نعلم أنّ مصطلح الهجرة مستعار من سيرة الرسول ﷺ، مع العلم أنّ هناك أحاديث تشير إلى منع الهجرة بعد الفتح (أي فتح مكة). لكن الخلاف الفقهي في هذه القضية لم يكن محل اهتمامنا، بل الشيء المهم هو أنّ المهدي استخدم الهجرة كمتغير حيوي في إستراتيجيته العسكريّة لجمع الأتصار وتحسينهم ضد الحكم التركي في السودان. ولذلك يصفها القدال بأنها "تكتيك نضالي متقدم، تلجأ إليه الحركات عندما يعزُّ عليها البقاء في مكان انبعاثها لشراسة المعارضة"⁽²⁶⁾. ولذلك لم تكن الهجرة إلى الجزيرة أبا، ومن بعدها إلى قدير في جنوب كردفان، قراراً عشوائياً، بل تكتيكاً عسكرياً مدروساً من حيث المكان والزمان اللذين اختارهما الإمام المهدي، حيث بدأت المناذرة للهجرة في مرحلة مبكرة من عمر الدعوة السريّة للمهدية، عندما خاطب المهدي بعض زعماء القبائل ومشايخ الطرق الصوفية، طالباً منهم الانضمام إليه في الجزيرة أبا. وفي 12 رجب 1297هـ/ 21 حزيران/ يونيو 1880م، أرسل خطاباً إلى الحاجة آمنة بنت الفقيه محمد نور، وعثمان الحاج صالح وأولاده وأهل بيته، مبشراً إياهم بالبشارات التي وردت إليه بشأن المهديّة، وحثاً إياهم على الهجرة إلى الجزيرة أبا: "فلازم، يا أحبابي، أن تجيبوا الأمر، وتأتوا إلينا سريعاً برمضان، فإن أمر النبي ﷺ بالاجتماع في شوال. فيمكن الاهتمام في هذا الأمر، فإنه أمر من الله ورسوله، وما بعد أمر الله ورسوله

24 القدال، ص 77.

25 خطاب من المهدي إلى محمد الطيب البصير، غرة شعبان 1298هـ - 30 حزيران/ يونيو 1881م، أبو سليم (تحقيق)، الآثار الكاملة، ج 1، ص 79.

26 القدال، ص 93.

إلا الضلال وسوء الحال المضر ... في الدارين. فهذه نصيحتي لكم، فالحذر الحذر، والسلام" (27). وفي خطاب لاحق يوضح المهدي إلى عبد الفتاح بن الفقيه عبد الله المسوغات الداعية لإحياء الدين، ثم يحثه على الهجرة إلى الجزيرة أبا، قائلاً:

وإنه، سيدي، وردت في ذلك واردات وأسرار لا يجوز بثها إلا بالحضرة [أي الحضور إليه]، لكن سيدي إن هذا الأمر لا يتخلف منه مَنْ هو صحيح الإيمان. فإذا أتاك هذا الجواب، فهيا بأهلك، وإخوانك، وأصحابك، وأتباعك، ولا تعين لفوات شيء. فمعلوم أن مَنْ ترك لله شيئاً عوضه الله خيراً منه، والأخبار في ذلك كثيرة، كترك سليمان عليه السلام خيله لله، فعوضه الله عنه الريح، وترك نبينا عليه الصلاة والسلام وطنه وجميع المآرب، فأخلفه الله ما لا يخفى، وترك الصحابة أموالهم وأهلهم إلا من تبعهم⁽²⁸⁾.

ويؤكد الإمام المهدي وجوب الهجرة شرعاً في خطابه إلى دفع الله بقوي، قائلاً: "ومما أوجه علينا ﷺ الهجرة، وهي واجبة كتاباً وسنةً، ومتحتمة لا يتخلف عنها إلا أهل الأعذار الصحيحة. وإجابة الدين واجبة، وإجابة داعي الله واجبة كتاباً وسنةً. ومن استغفرته الإمام وجب عليه النفور"⁽²⁹⁾.

بهذه المختارات من خطابات المهدي التي بعثها إلى الأعيان ورجال الطرق الصوفية، يتضح أنّ الهجرة كانت متغيراً (أو تكتيكاً) بالغ الأهمية من الناحية العسكرية؛ لأنها شكّلت خط دفاع للدعوة المهدية الوليدة ضد أعدائها، وساهمت في قيام معسكرين متميزين؛ أحدهما معسكر المهدي لإحياء الكتاب والسنة، كما يرى صاحب الدعوة، والثاني معسكر الترك الذين "سمّاهم النبي ﷺ كُفَّارًا! قال بل هم أشد الناس كُفَّارًا؛ لأنهم ساعون في إطفاء نور الله ورسوله"⁽³⁰⁾. وبهذه النداءات استوفى المهدي شرطاً من الشروط التي وضعها ماكس فيبر؛ لنجاح رسالة الشخصية الكاريزمية، ويتمثل ذلك الشرط في ترسيخ قيم "نحن"، و"هم"، التي تجعل الرسول ﷺ يقف في صف المهدي وأنصاره، والشيطان في صف الأتراك الذين وصفهم الرسول ﷺ، حسب منشورات المهدية، بأنهم أشد الناس كُفَّارًا. ولا شك أنّ هذا التقسيم العقدي شحذ همم الأنصار للوقوف بصلابة في وجه أعدائهم. وتتبلور صدقية ذلك في الحوار الذي جرى بين المهدي وأبي السعود بك العقاد⁽³¹⁾ في الجزيرة أبا قبل الصدام العسكري، عندما قال أبو السعود للمهدي: "ارجع عن هذه الدعوى، فإنك لا تطيق حرب الحكومة، ولا نرى معك من يقاقلها؟ فأجابه محمد أحمد وهو يبتسم: أنا أقاتلكم بهؤلاء، وأشار إلى أصحابه، ثم التفت إليهم، وقال: أنتم راضون بالموت في سبيل الله؟ فقالوا كلهم: نعم راضون بالموت في سبيل الله، وباذلون أرواحنا في رضى الله، ورسوله، ومهديه"⁽³²⁾. يؤكد هذا المشهد أنّ الذين التحقوا بمعسكر المهدي في الجزيرة أبا قد آمنوا بالدعوة المهدية وقيادتها الكاريزمية، وأظهروا استعداداً كاملاً لمواجهة أي عدو يقف في طريقهم. وأنّ الهجرة إلى الجزيرة أبا، ومن بعدها إلى قدير، كانت رصيماً عسكرياً مهماً للثورة المهدية؛ لأنها أفسحت المجال لشحن الأنصار عقدياً، وإعدادهم عسكرياً لمواجهة "أعداء الدين" و"علماء السوء".

27 خطاب من المهدي إلى الحاجة أمّنة بنت الفقيه محمد نور وحبينا وابنا عثمان الحاج صالح وأولاده وأهل بيته، 12 رجب 1297 هـ - 21 حزيران/يونيو 1880م، في: أبو سليم (تحقيق)، الآثار الكاملة، ج1، ص 63-64.

28 خطاب من المهدي إلى عبد الفتاح بن الفقيه عبد الله، 3 ذو القعدة 1297 هـ - 7 تشرين الأول/أكتوبر 1880م، في: المرجع نفسه، ص 69-70.

29 خطاب من المهدي إلى دفع الله بقوي، شوال 1298 هـ/ 28 آب/ أغسطس - 25 أيلول/ سبتمبر 1881م، في: المرجع نفسه، ص 99.

30 خطاب من المهدي إلى كافة جبال الفونج عربها وهمجها إلى حدث منهي بني شنقول وجبل قبا، 7 محرم 1299 هـ/ 29 تشرين الثاني/ نوفمبر 1881م، في: المرجع نفسه، ص 103.

31 هو محمد أبو السعود بله العقاد، مصري الأصل، قدم إلى السودان تاجرًا مع قريبه محمد أحمد العقاد، صاحب شركة العقاد التي كانت لها أعمال واسعة في الاستوائية بجنوب السودان، ثم أصبح مديرًا للشركة بعد وفاة صاحبها عام 1870م. دخل أبو السعود في صدام مع صموئيل بيكر وغردون بسبب سياساتهما الرامية إلى محاربة تجارة الرقيق، وبعد أن تضررت أعماله التجارية في الجنوب، انتقل إلى الخرطوم وصار معاونًا للحكمدار في الشؤون المالية. وبعد إعلان المهدية في الجزيرة أبا، أوكلت إليه مهمة مقابلة المهدي، وإقناعه بالدول عن رأيه بشأن المهدية، إلا أنه فشل في تلك المهمة، ولجأ لاستخدام القوة، ولكنه خسر الرهان بعد أن مني جنوده بهزيمة نكراء على أيدي الأنصار. توفي عام 1881م، ويقال إنه مات مسمومًا. انظر:

Richard Hill, *Biographical Dictionary of the Anglo-Egyptian Sudan* (London: Frank Cass, 3rd ed., 1967), pp. 274 - 275.

32 نغوم شقير، تاريخ السودان، تحقيق وتقديم محمد إبراهيم أبو سليم (بيروت: دار الجيل، 1981)، ص 337.

وبذلك كانت الجزيرة أبا تمثل المحطة الأولى للهجرة التي بلغت ذروتها في "ماسة" في أقصى الغرب، والملاصقة لجبل يُقال له "قدير"، بناءً على الأمر الوارد للمهدي من الرسول ﷺ - كما يزعم - بأن جميع الناس مأمورون بالهجرة إلى منطقة ماسة في جنوب كردفان⁽³³⁾. ولا شك أنّ هذا الخيار كان له بُعد عقدي، وآخر إستراتيجي. ويتمثل البُعد العقدي في أدبيات التُّراث الإسلامي التي أشارت إلى ظهور المهدي المنتظر في جبل ماسة، والبُعد الإستراتيجي يرتبط بطبيعة تضاريس المنطقة التي اختارها المهدي معسكرًا لجُنده، بحجة أنّها تبعد عن مركز السُّلطة التركية الحاكمة في الأبيض والخرطوم، وأنها تتمتع بحماية الملك آدم أم دبالو، ملك جبال تقلي⁽³⁴⁾. وبهذا الاختيار حقق الإمام المهدي شرطًا أساسيًا من الشروط التي وضعها صن تزو لإدارة الحرب الناجحة؛ أي طبيعة تضاريس الأرض التي أدار المهدي منها معاركه العسكرية الحاسمة ضد راشد بك أيمن⁽³⁵⁾ والشلاي باشا⁽³⁶⁾.

البيعة

البيعة عبارة عن عقد سياسي-أخلاقي ينشأ بين صاحب البيعة والمبايعين له لتحقيق هدف معين. فالإمام المهدي قد بايع نفرًا من السُّودانيين قبل أن يعلن بأنه المهدي المنتظر، ولكنه بايعهم على نصرة الدين وإحياء القيم الإسلامية، وطلب منهم أن يكتموا تلك البيعة إلى أن يظهر أمره للناس جليًا⁽³⁷⁾. وبذلك برزت أهمية البيعة بصفقتها مرتكزًا من مرتكزات إستراتيجية المهدي العسكرية بعد اللقاء العاصف الذي حدث بين أبي السعود والمهدي في الجزيرة أبا. وبعد ذلك اللقاء حذّر المهدي أنصاره، قائلًا: "أيها الناس إنّ الترك رجعوا لطلب المدد، وسيعودون إلى حربنا، فمن كان منكم خائفًا على أولاده، وأمواله، ليخرج منا، فنحن سامحون له، وبيعتنا التي في أعناقكم ليس عليكم فيها حرج، فإن سَلِمْنَا فعودوا إلينا؛ وإلا فقد أحرزتم أبناءكم وأمواكم"⁽³⁸⁾. فجاء رد أنصاره بلسان واحد: "يا سيدي نحن بايعناك على الموت، ورضينا بذلك، ولا نرغب بنفسنا عن نفسك، بل نحن معك حيثما توجهت، فمر بما شئت، فنحن لك سامعون، ولأمرك مطيعون يا خليفة رسول الله"⁽³⁹⁾. وبذلك شكلت البيعة رباطًا إستراتيجيًا وأخلاقيًا بين المهدي وأنصاره، يمكن أن يُصنّف في خانة

33 خطاب من المهدي إلى كافة الأحباب في الله، في: المرجع نفسه، ص 615. النص الكامل لهذه الفقرة يقرأ هكذا: "أيها الأحباب إني محمد بن عبد الله، وأبي حسني من جهة أبية وأمه، وأمي عباسية من جهة أبيه وأمه، حينئذ لا شك أني من نسل المصطفى ﷺ، وإني وُلدت في بحر النيل، وهاجرت إلى ماسة في أقصى الغرب، بلصق جبل يقال له قدير؛ لأنني موعود به فلا تلبسوا على أنفسكم بقول ظهورنا في المشرق، المعني أننا نظهر بالشرق، ويملا الله لنا البلدان عدلاً كما ملئت جوراً، ويدر الله لنا الأرزاق دزاً، ويفيض الماء غيظاً، وتأنس الذباب، يعني بها السباع الضارية في الأنعام، ويؤمن كل مؤمن من سم الحية. وهذا كله بعد وصولنا لبيت الله الحرام، والبيعة الثانية هي الكبرى، وتسمى بيعة الفوز والرضوان".

34 يعلق القدال على اختيار جبال النوبة قائلاً: "ولعل الموقع الإستراتيجي لجبال النوبة، والاستقلال النسبي الذي يتمتع به سلاطينها، جعلها أكثر استعدادًا للخروج على الحكم المركزي المنظم، وجعلها بوقفة للتمرد على الحكومة واستقبال الخارجين على طاعتها. ولم تفت تلك الأمور على محمد أحمد، فزارها وأمن موقعه هناك بالاتصالات التي أجراها". انظر: القدال، ص 67.

35 هو راشد بك أيمن، جندي مصري، شغل منصب حاكم فشودة على النيل الأبيض. أخذ زمام المبادرة لمهاجمة المهدي في جبل قدير من دون موافقة الحكومة في الخرطوم، فكان مصيره القتل في واقعة جبل قدير في 9 ديسمبر 1881. شقير، تاريخ السودان، ص 341 - 342.

36 هو يوسف حسن الشلاي، أصله كنزي، من مواليد مدينة الخرطوم. لمع اسمه عندما كان يعمل مع حسين باشا في بحر الغزال. وبعد دحره لقوات سليمان الزبير باشا، رُقي الشلاي إلى رتبة لواء، وتقديرًا لخدماته العسكرية. قاد الحملة الثانية على المهدي بهدف القضاء على المهدي في كردفان واستئصالها من القواعد. وصحب جيشه الكثيف نفر من أعيان السودان، إلا أنه هُزم وقتل، وشنت شمل قواته على أيدي أنصار المهدي. انظر:

Hill, p. 386.

37 نص البيعة: "بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله الوالي الكريم، والصلاة على سيدنا محمد وآله مع التسليم. أما بعد، فقد بايعنا الله ورسوله، وبايعناك على توحيد الله، والألّا نشارك به أحدًا، ولا نسرق ولا نزني، ولا نأتي بيهتان، ولا نعصيك في معروف، بايعناك على زهد الدنيا وتركها، والرضى بما عند الله، ورغبة ما عند الله والدار الآخرة، وعلى أن لا نفر من الجهاد." وحسب رواية شقير أن المبايع كانت على وجهين: يتمُّ الوجه الأول مصافحةً ومشافهةً، أي بأن يضع المبايع يده على يد المهدي، جاعلاً إبهامه على إبهامه، ثم يقرأ المهدي نصّ البيعة، ويردد المبايع من بعده. والوجه الثاني يتمُّ مشافهةً فقط، أي أن يتلو المهدي نصّ البيعة، ويردد الحضور من بعده. انظر، شقير، تاريخ السودان، ص 349. ويبدو أنّ هذا الإجراء الثاني كان في أيام المهدي الأولى، وإلى جانب هاتين الطريقتين، كان المهدي يفوض الخلفاء والأمراء والزعماء لأخذ البيعة نيابة عنه في الأماكن البعيدة عن معسكره. ومن جانب آخر، نلاحظ أنّ نصّ البيعة قد تأثرت ببعض المصطلحات الواردة في بيعتي العقبة الأولى والثانية بين الرسول ﷺ وأهل يثرب.

38 المرجع نفسه، ص 337.

39 المرجع نفسه.

"القانون الأخلاقي للجند"، الذي عدّه صن تزو من ثوابت فن الحرب، ومستلزمات النصر فيها. وفي إطار أطروحة ماكس فيبر المرتبطة بالشخصية الكاريزمية، يمكن أن نُصنّف الرباط الأخلاقي الذي أُسس بين المهدي وأنصاره سبباً ضمن أسباب نجاح الثورة المهديّة؛ لأنه أحدث تمايزاً سياسياً وفكرياً بين أنصار الثورة وأعدائهم، ثم دفع الأولين تجاه تحقيق هدفهم الأسمى، المتجسّد في إزالة الحكم التركي. أما من الناحية الإجرائية، فلم يجعل المهدي أداء البيعة مركزياً مرتبطاً بشخصه؛ بل فوّض الأمراء وأصحاب الرايات بأخذ البيعة نيابة عنه، ووصف أي شخص لم يأخذ البيعة عنهم بأنه "مناقق ملعون"،⁽⁴⁰⁾ وأنّ "الشخص الذي أخذ البيعة وعاد إلى فعله الخبيث فهو كالمردت"⁽⁴¹⁾. وبهذا الحكم القيمي استطاع الإمام المهدي أن يضع معياراً أخلاقياً معيناً للالتزام ببعته والولاء له، لدرجة تضع المتمرّد في مرتبة المرتد الذي يجب إقامة الحد عليه (وحد المرتد القتل). وبهذا التوجه السياسي للمهدي، شكّلت البيعة نوعاً من الالتزام الأخلاقي الصارم بقيم المهديّة وتعاليمها، والانصياع التام لأوامر مؤسسها، وتنفيذها على أرض الواقع، فضلاً عن أنها أضحت تمثل رباطاً حصيناً بين المهدي وأنصاره، ومركزاً إستراتيجياً تستند إليه المهديّة عسكرياً وسياسياً في مواجهة تحديات أعدائها.

الجهاد

يمثل الجهاد أحد مرتكزات الإستراتيجية العسكرية للإمام المهدي؛ لأنه يهدف إلى إزاحة التّركّ الذين ضلوا عن طريق الرشاد، حسب منشورات المهدي، ويفسح المجال لتحقيق أهداف المهديّة العليا القائمة على إقرار العدل والمساواة بين الناس، وتحكيم الكتاب والسنة في أمور المسلمين العامة والخاصة. وقد ربط المهدي هذا التكليف بحضرة نبوية، أجلسه فيها الرسول ﷺ على كرسي المهديّة، وأمره بجهاد التّرك، وذلك حسب ما جاء في أحد منشوراته:

إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمَّا أَجْلَسَنِي عَلَى كُرْسِيِّ الْمَهْدِيَّةِ، قَدْ أَمَرَنِي بِجِهَادِ التُّرْكِ، وَقَالَ لِي: إِنَّ التُّرْكَ كَافِرُونَ، بَلْ أَشَدُّ النَّاسِ كُفْرًا وَنِفَاقًا؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَقُولُونَ بِالسِّبْتِ مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾، وَإِنَّهُمْ يَسْعُونَ فِي إِطْفَاءِ نُورِ اللَّهِ تَعَالَى؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ بِإِهَانَةِ السَّنَةِ النَّبَوِيَّةِ وَأَسْتَعْطَافِ الْإِسْلَامِ. وَقَدْ أَظْهَرُوا كُتْبًا يَرِيدُونَ بِهَا طْفِئَ نُورَ اللَّهِ تَعَالَى، يَسْمُونَهَا كُتُبَ الْقَانُونِ، مَعَ شَتْمِ الْإِسْلَامِ وَقَهْرِهِ. أَمَا تَرَوْنَهُمْ يَسْحَبُونَكُم فِي الْحَدِيدِ وَالسَّلَاسِلِ لِأَجْلِ أَخْذِ أَمْوَالِكُمْ، لَا يُوقِرُونَ كِبِيرِكُمْ، وَلَا يَحْتَرِمُونَ صَغِيرِكُمْ، وَيَحْمَلُونَكُم الْمَشَاقَّ الْقَوِيَّةَ. لَا تَتْرَكُوهُمْ حَتَّى يَسْلَمُوكُم الْأَسْلِحَةَ وَالْأَمْوَالَ، فَإِنْ فَعَلُوا ذَلِكَ فَلَا تَسْتَرْقُوا أَوْلَادَهُمْ وَنِسَاءَهُمْ، بَلْ أَقْرِوهُمْ عَلَى حَالِهِمْ، وَهُمْ إِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ، وَأَحْسِنُوا إِلَيْهِمْ. إِنَّ الْعَمَلَ كُلَّهُ لِلنِّيَّةِ فِي الْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ... قَالَ تَعَالَى ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّهُمْ لَهَا فِي حِجْتِهِ﴾، عَوْضًا عَنْهَا إِذْ قَتَلُوا أَوْ قَاتَلُوا، قَالَ تَعَالَى ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قَاتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾. وَقَالَ لِي سَيِّدُ الْوُجُودِ ﷺ: مَنْ أَنْكَرَ مَهْدِيَّتَكَ فَقَدْ كَفَرَ. وَإِنْ أَرْوَاهُ التُّرْكُ اشْتَكَّتْ إِلَيَّ، وَقَالُوا يَا إِهْنَا وَيَا خَالِقْنَا إِنَّ الْإِمَامَ الْمَهْدِيَّ قَتَلْنَا مِنْ غَيْرِ إِندَارٍ، فَقُلْتُ يَا إِهْمِي أَنْذَرْتَهُمْ وَخَالَفُونِي، وَصَالُوا عَلَيَّ، وَسَيِّدُ الْوُجُودِ شَاهِدَ عَلَيْنَا. وَقَالَ سَيِّدُ الْوُجُودِ ﷺ: ذَنْبِكُمْ عَلَيْكُمْ، وَإِنَّكُمْ خَالَفْتُمْ، وَصَلْتُمْ، فَقَتَلْتُمْ. وَإِنِّي عَبْدٌ مَأْمُورٌ بِإِظْهَارِ الْكِتَابِ وَالسَّنَةِ الْمَقْبُورِينَ حَتَّى يَسْتَقِيمَا. وَقَدْ أَمَرَنِي سَيِّدُ الْوُجُودِ ﷺ أَنْ كُلَّ مَنْ خَالَفَنِي عُذُّ كَافِرًا، وَإِنَّ اللَّهَ غَفَرَ ذَنْبَ مَنْ اتَّبَعَنِي وَقَوَانِي.⁽⁴²⁾

واستناداً إلى هذا النصّ، يصف المهديّ الجهاد في سبيل الله بأنه الوسيلة الوحيدة لتحقيق الغاية السياسية الهادفة لإحياء الكتاب والسنة المقبورين حتى يستقيما، ولا تتحقق هذه الغاية، من وجهة نظره، إلا بإعلان الجهاد على الأعداء الذين يريدون إطفاء نور الله بأفواههم. وهنا يتفق المهدي مع ميكافيلي الذي يؤكد على "الوحدة الوظيفية بين السياسة والحرب"؛ بمعنى أنّ الحرب "نشاط عسكري

40 خطاب من المهدي إلى كافة الأجباب في الله، في: المرجع نفسه، ص 613.

41 المرجع نفسه، ص 614.

42 خطاب من المهدي إلى كافة الأجباب في الله، في: المرجع نفسه، ص 612.

ميداني غايته تحقيق الهدف السياسي للدولة"، أو الأهداف السياسية للحُكَّام⁽⁴³⁾. ولا يتمُّ إنجاز ذلك إلا عن طريق كسب الحرب والانتصار فيها. وكسب الحرب يحتاج إلى قيادة عسكرية مؤهلة، وجيش مدرب، وتعبئة روحية ونفسية عالية. وتؤكد هذه المتطلبات الفنية التي وضعها علماء الإستراتيجية العسكرية، أهمية العلاقة الجدلية التي استندت إليها مرتكزات الإستراتيجية العسكرية للإمام المهدي ومتغيراتها، كما أشرنا إليها أعلاه. بدليل أنّ الهجرة إلى "ماسة" في جنوب كردفان كانت تشكل فضاءً عسكرياً لإعداد جيوش المهديّة، وأنّ البيعة خلقت رباطاً أخلاقياً - سياسياً بين المهدي والانتصار، وأنّ الجهاد مثل أعلى درجات العمل الثوري الهادف إلى تأسيس دولة المهديّة وتطلعاتها السياسية العريضة.

القيادة والتنظيم

كانت فكرة المهدي المنتظر، كما أشرنا من قبل، تمثل ذروة سنام إستراتيجية محمد أحمد المهدي العسكرية؛ لأنها رسمت بعدها العقدي، وأوثقت رباطها الأخلاقي التنظيمي، وشكلت معالم برنامجها السياسي القائم على حزمة من التطلعات التأميلية والتوجهات الغيبية للمهديّة. وبناءً على ذلك أجلس محمد أحمد المهدي نفسه على قمة الجهاز التنفيذي والتشريعي والقضائي للحركة، مُعطياً بعض أحكامه التشريعية وقراراته السياسية سلطة مطلقة؛ لأنها مستمدة من سيد الوجود ﷺ، ولا تخضع لأيّ محاكمة بشرية، حتى لو كانت مستندة إلى تراث السلف الصالح⁽⁴⁴⁾. وتحت مظلة هذه السيادة شبه المطلقة، أسست معالم الشكل التنظيمي لقوات المهديّة في الجزيرة أباً، عندما قسّم المهدي أنصاره إلى خمس رايات، كاتباً على الراية السيادية التي كان يتولى زمام قيادتها، "محمد المهدي خليفة رسول الله"، وعلى الرايات الأربع الباقية أسماء كبار الأولياء المشهورين في التراث الصوفي: الجيلاني، والرفاعي، والدسوقي، والبدوي، وجعل لكل راية مقدماً⁽⁴⁵⁾. ويرى زلفو أنّ هذا التنظيم العسكري كان مستأنساً من مصدرين؛ يتمثل أحدهما في تعاليم الخلوات والطرق الصوفية التي درج مريدوها على تنظيم مواكب شبه عسكرية للاحتفال بمناسباتهم الدينية، مُقسّمين أنفسهم إلى رايات ومقدمين، تصحبهم الطبول والأنشيد والأدعية والتكبيرات⁽⁴⁶⁾. ويتجلى المصدر الثاني في تراث مغازي الرسول ﷺ، والحروب التي خاضها المسلمون لتأسيس الدولة والمجتمع المسلم. وإلى جانب هذا التراث الإسلامي اهتم المهدي بالتركيبة القبلية والاعتبارات الجهوية في السودان، بدليل أنه عين خليفة الصديق عبد الله بن محمد (الخليفة عبد الله لاحقاً) نائباً له، وقائداً للراية الزرقاء التي كانت تضم قبائل غرب السودان، وخليفة الفاروق علي محمد حلو قائداً للراية الخضراء التي تضم قبائل دغيم وكنانة وبعض مناطق الجزيرة، وخليفة الكرار محمد شريف قائداً للراية الحمراء التي كانت تضم القبائل النيلية في شمال السودان، ثم عين عثمان أبو بكر دقنة أميراً على قبائل الشرق، بدرجة أقل من درجة الخلفاء. وبعد انتصاره على حملة راشد بك أيمن، أصدر المهدي منشوراً تنظيمياً لفصائل جيشه المحاربة كافة، جاء فيه:

ورأس ذلك الامتثال للأمير الذي هو مميز الحروب ... قال ﷺ: من اتبع أميرى فقد اتبعني، ومن خالف أميرى فقد خالفني، قد نهبت غير مرة في موافقة الإخوان لأمرائهم والأمراء لخلفائهم، والكل للخليفة عبد الله. في ذلك راحة بالنا وإقامة الدين، وقد وردت سابقاً حضرة، أن مقادير أهل الراية الزرقاء ينقادون ليعقوب، وهم ويعقوب ينقادون للخليفة عبد الله، ودغيم من راية الخليفة علي ينقادون لموسى ودحلو، وكنانة للبشير، وعمارنة لأبي بكر عامر، والحسينات لعبد القادر ود مديح، وكلهم ينقادون بالمحبة للخليفة علي. وتكون

43 نقلاً عن: فهمي، ص 156.

44 لمزيد من التفاصيل انظر: أحمد إبراهيم أبو شوك، "منهجية التشريع المهدي في السودان (1881-1885)", كتابات سودانية، العدد 7 (القاهرة: آذار/ مارس 1999)، ص 10-30.

45 القدال، ص 89؛ وعصمت حسن زلفو، كرري (أم درمان: مركز عبد الكريم ميرغني، ط4، 2012)، ص 38.

46 زلفو، ص 37-38.

جميع هذه القبائل مع الخليفة علي كرجل واحد، وكلهم ينفقون للخليفة عبد الله، وكذلك راية الخليفة شريف، جميع أمرائها ومقاديمها يتفقون، وينقادون لعبد الرحمن النجومي، وهم ينفقون للخليفة شريف المذكور، وكلهم ينفقون للخليفة عبد الله⁽⁴⁷⁾.

كان هذا المنشور التنظيمي يشكل خطوة تجاه ترسيخ وعي قومي في السودان، إلا أن الصراعات التي شهدتها دولة المهدي بعد وفاة المهدي قد أفسدت هذا التوجه، وأفرغته من محتواه، وجعلت أنصار المهدي وخصومهم يستبدلون أفضلية الانتماء إلى الوطن بدونية الانتماء للقبيلة.

الخط الحربية (التكتيكات العسكرية)

تمثل الخط الحربية التي رسمها الإمام المهدي لساحات المعارك التي خاضها إحدى وسائل تنفيذ إستراتيجيته العسكرية، وتحقيق أهدافه السياسية العليا؛ علمًا بأن الإستراتيجية لا تهتم فقط بصوغ الأهداف العليا؛ ولكنها تواءم بين الأهداف وفرن استخدام الخط الحربية التي تُساعد في تحقيق النصر العسكري، المضي لبلوغ الهدف. وبتناول في الفقرات الآتية نماذج من الخط الحربية التي نفذها الإمام المهدي على ساحات الحروب التي خاضها، وتساءل إلى أي مدى كانت تلك الخطط شاهداً على عبقرية العسكرية، وقدرته على توظيف الاعتبارات المعنوية والمعطيات المادية المتاحة لمصلحته الإستراتيجية على حساب السلطة القائمة آنذاك؟

طلائع الاستكشاف الحربي والعمل الاستخباراتي

عندما عَلِمَ المهدي بتقدم جيش راشد بك أيمن صوب قدير اختار نفرًا من الجُند، قسمهم إلى قسمين؛ يتكون القسم الأول من فارس واحد مهمته جمع الأخبار الأولية عن عدد الجيش، وعتاده، والطريق الذي يسلكه؛ ويتكون القسم الثاني من ثلاثة جنود، عليهم جمع المعلومات التفصيلية عن العدو، وملازمته خطوة بخطوة، ثم الانفصال عنه في اللحظة الأخيرة. ولا شك أن هذا العمل الاستخباراتي قد رُفد الإمام المهدي بمعلومات بالغة الأهمية، أعانتها في التخطيط لقتال أعدائه التُرك ومن شايهم. فالمعرفة الدقيقة بتحركات العدو، وعدده، وعتاده، تعدُّ من المعلومات الاستخباراتية المهمة التي يصنفها صن تزو ضمن قائمة فنون الحرب الناجحة، ويعتبرها في أساسيات الانتصار في المعركة.

وإلى جانب هذا الأسلوب الاستخباراتي استخدم المهدي أسلوبًا آخر، يتمثل في مناوشات الحملات العسكرية من دون الالتحام بها؛ لأضعاف الروح المعنوية في أوساط الجُند وإرهاقهم، كما فعل مع حملتي يوسف الشلالي باشا وهكس باشا William Hicks Pasha⁽⁴⁸⁾. وعندما احتج عليه الشلالي بأن مثل تلك المناوشات تنافي تعاليم المهدي الحقة التي يجب أن يمتلك صاحبها ناصية الغيب، ردَّ عليه مفندًا: "وقولكم إنَّ الطليعة تنافي المهدي؛ لأنَّ المهدي ضرورة يعلم الغيب، جهلاً منكم بسيرة الرسول، فإنَّ النبي ﷺ كان يرسل الطلائع، كحذيفة بن اليمان، والزبير بن العوام وغيرهما، فلم يناف ذلك رسالته، فكيف يناف مهديتنا؟"⁽⁴⁹⁾ وإيماناً منه بأهمية الطلائع والمناوشات العسكرية في فنون الحرب ومكائدها، نبَّه المهدي الشيخ أحمد جفون بتحريك حملة هكس باشا صوب كردفان، مخاطبًا:

47 زلفو، ص 39 - 40.

48 هو وليم هكس باشا William Hicks Pasha، جندي بريطاني عمل في الهند تحت خدمة التاج البريطاني، ثم عُيِّن عام 1883 برتبة فريق في الجيش المصري، وكُلف بمهمة القضاء على الثورة المهديّة، وبناءً على هذا التكليف حضر إلى السودان على رأس جيش كبير من الجنود المصريين والسودانيين. هُزمت قواته في واقعة شيكان في تشرين الثاني/نوفمبر 1883. وقتل الجنرال هكس في أرض المعركة مع عدد كبير من قادة جيشه وجنوده. انظر:

Hill, pp. 164 - 165.

49 خطاب من المهدي إلى يوسف حسن الشلال ومن معه من الجموع، 4 رجب 1299هـ - 22 أيار/مايو 1882، أبو سليم (تحقيق)، الآثار الكاملة، ج1، ص 121 - 128.

أما بعد، فالذي نعلمك به أنه بلغنا خروج الكفرة بنواحيكم، ولم ندر أي جهة يسلكونها. [...] وأعلموا أن معكم نصر الله وعونه، فلا تخشوهم أبداً، فأنتم حزب الله الغالبون بإذن الله تعالى، وهم حزب الشيطان الخاسرون الهالكون. [...] وإنه مجرد وصول جوابي هذا إليكم أنتم وجميع من معكم من الأنصار والأتباع انضموا مع بعضكم البعض في جهة من الجهات، وأخلوا لهم الطريق كي يجدوه سهلاً خالياً، وأكمنوا لهم بالطلانغ الشافية، وبعد تحققكم لذهابهم ومرورهم بنواحيكم، فأمسكوا قفاهم واتبعوهم من ورائهم، فيصيروا وسطاناً، تحملوا عليهم مرة واحدة، فيهلكوا جميعاً، ويمح الله أثرهم. فهذه مكيدة للحرب⁽⁵⁰⁾.

الظروف البيئية (تضاريس الأرض والمناخ)

يُعدُّ استغلال الظروف البيئية إحدى الوسائل التي رصدها صن تزو وبعض الخبراء العسكريين لتحقيق النصر في أرض المعركة. ومن الشواهد التي تدل على قدرة المهدي العسكرية في هذا المجال وقائع انتصاره على حملة هكس باشا في وادي شيكان، خارج مدينة الأبيض، في تشرين الثاني/نوفمبر 1883. علماً بأن المهدي قد رفض أن يكون في موقع دفاعي لا يتناسب مع قدراته العسكرية. ولذلك خرج من الأبيض، مؤثراً المواجهة في غابات وادي شيكان. وفي موقع المعركة احتل مورد المياه الوحيد (منهل البركة)، مجبراً جيش هكس على اتخاذ طريق الملبس الذي يمر بغابة وادي شيكان. وليعطل حركة جيش هكس من عبور الغابة، أمر المهدي الخيالة بإحداث ضجة عظيمة؛ ليوهم هكس بأن الهجوم الرئيس على وشك الوقوع، فاضطر هكس للتوقف عن السير، وشيد معسكره المؤقت (الزربية)، بينما كان جيش المهدي يبعد عن شيكان ما لا يقل عن خمسة عشر ميلاً. وبعد أن توقف هكس، نفّذت خيالة الأمير محمد عثمان أبو قرجة عملية نقل ضخمة للجهادية، بقيادة حمدان أبو عنجة من مشارف أرض المعركة، وحشدتهم في مداخل الغابة وأطرافها، حيث استخدموا الأشجار الكثيفة سواتر لصدّ نيران العدو، ثم تسلقوا أعاليها، ووجهوا نيرانهم الكثيفة تجاه قوات هكس. وقد وصف الكابتن هيرلث ذلك المشهد في ليلة 4 تشرين الثاني/نوفمبر 1884، قائلاً: "كان يوماً سيئاً، فمعنوياتنا هابطة، فنحن داخل الغابة. لقد أمر الجنرال الموسيقي بالعزف أملاً أن يخفف ذلك علينا قليلاً، ولكن الفرقة الموسيقية سرعان ما توقفت عن العزف، فقد انصبت النيران علينا من كل الجهات، بدأ الرجال والجمال والبغال يتساقطون بسرعة واحداً بعد الآخر، فتجمعنا وانضمت صفوفنا، فأصبحت كل طلقة تصيب مقتلاً. لقد أصاب منا الإرهاق والتعب مدى بعيداً، وأصبحنا لا ندري ما نفعله"⁽⁵¹⁾. وتجلت الخطوة الثانية في حفر خندق وسط الغابة، واختبأت مجموعة من الجنود بداخله، وبعد أن عبرت قوات هكس الخندق، هجمت عليها قوات الأنصار من الخلف، وشنت شملها. وتمثلت الخطوة الثالثة والأخيرة في إطباق قوات المهدي من الجهات الثلاث على قوات هكس، وأبادتها في أقل من ساعة، ولم ينجوا من القتل إلا ثلاثمئة رجل اختفوا تحت جثث القتلى المكذّسة. ويحلّل زلفو مخطط المهدي العسكري في واقعة وادي شيكان في النصّ الآتي:

على مدار تاريخ الصراع البشري المسلح، وحتى يومنا هذا، لا زال الصدام الهائل الذي احتدم على سهول كردفان في ضحى يوم الاثنين من أواخر عام 1883، يبرز مثلاً رائعاً لإبداع الفن العسكري في مزج الخيال والتخطيط بواقع التنفيذ والتطبيق. فاختيار مسرح الالتحام المثالي الذي فجر فيه المهدي طاقات جيشه، والسرعة الخاطفة التي أزاح بها آلافاً من الجنود المسلحين والمدربين من حيز الوجود، وذلك الختام الخرافي الشبيه بأساطير الأولين حين تبتلع الأرض جيوشاً بأكملها. كل ذلك يدل دلالة لا شك فيها ولا جدال على

50 خطاب من المهدي إلى الشيخ أحمد جفون، 1300هـ، المرجع نفسه، ص 459 - 460.

51 زلفو، ص 47 - 48.

أنه كان نتاجاً لتخطيط دقيق محسوب، بلغ قمته في ساعة توهج عقلي في أصيل يوم الأحد، عقب مجلسه الحربي الأخير، فتمخض عنه ذلك المخطط الفذ⁽⁵²⁾.

يؤكد هذا النصُّ أنَّ المهدي كان يهتم بدراسة الظروف المناخية، والتضاريس البيئية المحيطة بأي خطة عسكرية؛ لأنَّ الانتصار الحربي على العدو كان يصبُّ في خدمة إستراتيجيته العسكرية، وبمهد الطريق لتحقيق أهدافه السياسية العليا. واستناداً إلى ذلك، فإنَّ هزيمة هكس باشا في شيكان كانت تعني القضاء على آخر جيش نظامي لأعداء المهدي في السودان، وإضعاف الروح المعنوية للحكومة في الخرطوم، وتشجيع زعماء العشائر المترددين على الانضمام إلى صفوف المهدي المنتصرة. وبناء عليه، أضحى معسكر المهدي متفوقاً عدداً، وعدةً، وعتاداً؛ لدرجة أهلكته للانتقال من وضعه الدفاعي في كردفان إلى وضع هجومي، يستهدف الخرطوم، حاضرة الحكم التركي في السودان.

إشعال الثورة في الأطراف

يبين عبد القادر فهمي أنَّ الخطط التي تبناها نابليون بونابرت Napoleon Bonaparte في تنفيذ إستراتيجيته العسكرية في الحروب كانت تتكون من خمسة عناصر مهمة، تتمثل في الكثافة العددية للقوات العسكرية وقوتها النارية، والانتشار الواسع على جبهة قتال طويلة تخرج عن سيطرة العدو، والمناورة وسرعة الحركة قبل الاشتباك لجر العدو إلى معارك جانبية تشتت قواته وتستنزف طاقاته وقدراته القتالية، وضرب العدو في اتجاهات متعددة لتشتيت جهده المركزي، ثم الانقضاض عليه في مواقع حيوية، وأخيراً توجيه ضربات مؤثرة على مؤخرة العدو للإخلال بتوازنه وقطع خطوط إمداده⁽⁵³⁾. فالقارئ المتمعن في صحائف المهدي العسكرية يلحظ أنَّ المهدي قد طبق هذه العناصر الخمسة بعناية وجدارة، عندما أشعل الثورة في كل أطراف السودان، ولم يلتزم حصرها في كردفان؛ لأنَّ الهجرة إلى قدير، من وجهة نظره، كانت متغيراً إستراتيجياً، ولا تمثل مرتكزاً ثابتاً في إستراتيجيته العسكرية؛ ولذلك جعل مسألة البيعة، وإشعال الثورة في كل أنحاء السودان أمراً غير مركزي ليشنت جهد الحكومة التركية، ويشغلها في أكثر من موطن، وبذلك يضمن حرية الحركة والمناورة، وتوجيه ضربات موجعة لها في أماكن حيوية. وبناءً على ذلك، بعث الخطابات والناشير للأعيان والزعماء، حاثاً إياهم على إشعال الثورة في كل بقاع السودان. وبموجب ذلك، برزت أسماء بعض المهديين في سجل العمل الجهادي ضد الحكم التركي في السودان، أمثال الأمير عثمان دقنة في الشرق، والفكي المنا إسماعيل في شرق كردفان، والشيخ عامر المكاشفي في الجزيرة، والشريف أحمد ولد طه في شرق النيل الأزرق، ومحمد الخير عبد الله خوجلي في بربر، والشيخ الهدي في دنقلا. ويعلق القدال على هذه الرؤية الإستراتيجية، قائلاً:

عندما نتابع أحداث الثورة في الجزيرة وكردفان نرى بعض الجوانب من منهج المهدي لتطوير الحركة الثورية. **أولها:** أنَّ الثورة المهديّة لم تكن حركة قابضة في قدير، تنتظر حملات الحكومة لتصادمها، بل تحولت إلى ثورة امتدت إلى خلايا المجتمع بدرجات متفاوتة. **ثانيها:** أنَّ المهدي اعتمد على القيادات المحلية للتصدي للعمل الثوري. فأبناء المنطقة أو القبيلة هم أقدر الناس على فهم أحوال منطقتهم وأهلهم. كما أنَّ الاعتماد على العناصر المحلية يكسب الثورة أصالة. لهذا جاء حرصه دومًا على تكليف أبناء المنطقة ذاتها. **ثالثها:** حرص المهدي على اجتذاب الشخصيات التي لها وزن ديني، أو قبلي، أو اجتماعي. فالانقياد لهؤلاء أسهل في مجتمع ما زالت الطريقة والقبيلة

52 نقلاً عن: القدال، ص 113.

53 فهمي، ص 158.

مؤسسات لها وجودها وثقلها [فيه]. ونلاحظ غلبة العنصر الصوفي في الجزيرة، وغلبة العنصر القبلي في كردفان، وهذا راجع للتطور التاريخي المختلف للمنطقتين⁽⁵⁴⁾.

الحصار

من الخطط العسكرية التي نفذها المهدي بجدارة حصار المدن الرئيسية قبل السيطرة عليها، مثل حصاره للأبيض والخرطوم. وقد نفذ حصار الخرطوم على مراحل عديدة؛ تمثلت المرحلة الأولى في إشعال الثورة في منطقة الجزيرة والنيل الأبيض لتشتيت جهد الحكومة، والثانية في إرسال الأمير أبو قرحة لإحكام الحصار من جهة الجنوب، والشيخ العبيد ود بدر من جهة الشرق، والثالثة في قطع خطوط الإمداد الخارجي، بسيطرة الشيخ محمد الخير عبد الله خوجلي على بربر في الشمال، وإشعال الأمير عثمان دقنة للثورة في الشرق. وتوّجت هذه الخطوات الثلاث بسيطرة حمدان أبو عنجة على أم درمان، وحضور عبد الرحمن النجومي جنوباً من ناحية النيل الأبيض، وأخيراً وصول قوات الإمام المهدي إلى معسكر أبي سعد بأم درمان. وعندما بلغت الاستعدادات العسكرية ذروتها، شرع المهدي في حرب المنشورات المتبادلة مع تشارلس غردون Charles Gordon⁽⁵⁵⁾؛ إذ كتب منشوراً إلى أهالي الخرطوم، استنسخ الكُتّاب نُسخاً منه، ثم أعطوها لأحد الجواسيس، فوضعها في أثناء من صفيح على شكل إبريق وعبر به النيل الأبيض سباحة بالليل، ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها، وألقى بالمنشورات في الأزقة والطرقات، وقذف بها في المنازل، ثم عاد أدراجه. ويعلق أبو سليم على هذا الإجراء، بأنه: "أول عهد الخرطوم بالمنشورات المحظورة التي توزع خفية"⁽⁵⁶⁾. وقد أضعفت تلك المنشورات الروح المعنوية لسكان الخرطوم المحاصرين، وألّبت الرأي العام ضد غردون، وجعلت بعض علماء الخرطوم وأعيانها، أمثال الشيخ أحمد العوام المصري⁽⁵⁷⁾، يقفون موقفاً معارضاً له، ومهدين الطريق لإنجاح سياسة الحصار والانهيار من الداخل⁽⁵⁸⁾.

وعندما بلغ الحصار غايته، ونفذ المخزون الغذائي، وضعفت الروح المعنوية في أوساط الجنود والرعية، بدأ غردون يتشبث بوصول حملة الإنقاذ التي غادرت أبو طليح متجهة نحو الخرطوم، وكتب منشوراً في هذا الشأن، علّقه في طرقات المدينة المحاصرة، جاء في بعض فقراته: "قد جاءت البشرية بأنّ الجيش الإنكليزي فَرَّقَ جمعهم [أي الأنصار] في صحراء بيوضة، وقتل منهم ألوفاً، ونزلت مقدمته الممتة، وهو مسرع لإنقاذنا، وبسبب هذه البشرية عفوت عن أحمد بك جلاب مدير الخرطوم، وعمن اشتروا معه في مراسلة المهدي،

54 القدال، ص 106.

55 هو تشارلس جورج غردون Charles George Gordon ذو الأصول الاسكتلندية، الذي ترقى في الجيش المصري إلى رتبة فريق، وعُين عام 1874م مديراً لخط الاستواء في جنوب السودان، حيث أسس عدداً من النقاط الإدارية، وساهم في توسيع دائرة نفوذ السُلطة الخديوية. استقال من منصبه عام 1877م، لكن أعيد تعيينه مرة أخرى حكماً عاماً على السودان، وأوكلت إليه مهمة القضاء على تجارة الرقيق؛ إلا أنه واجه جملة من المشكلات الداخلية التي أفضت إلى استقالته عام 1879م. وبعد فشل الحكمديارية في القضاء على الثورة المهديّة، أعيد تعيينه حكماً عاماً للسودان عام 1884م، وحُصرت مهمته في إخلاء الجيوش المصرية والعاملين الإداريين من السودان؛ إلا أنه دخل في صراع مكشوف مع الإمام المهدي وأنصاره، مُعرّضاً مدينة الخرطوم وأهلها إلى حصار خانق، أودى بحياته في 26 كانون الثاني/يناير 1885م، وبموجب ذلك قضى الأنصار على أهم معاقل الحكومة التركية في السودان. انظر:

Hill, p. 30.

56 محمد إبراهيم أبو سليم، تاريخ الخرطوم (بيروت: دار الجيل، ط3، 1970)، ص 76.

57 هو أحمد العوام كاتب مصري، عُين في وزارة الحربية بالقاهرة. اشترك في ثورة أحمد عرابي، فحكم عليه بالنفي إلى السودان. شهد حصار الخرطوم، وكتب رسالة تُعرف بـ "نصيحة العوام"، أرّخ فيها لثورة أحمد عرابي في مصر، وأبدى فيها تعاطفاً مع الثورة المهديّة في السودان. وعندما كشف أمره اتهم بالخيانة، وحُكم عليه بالإعدام شتقاً في الخرطوم عام 1884م. انظر:

Hill, p. 30.

58 المرجع نفسه، ص 77. لمزيد من التفاصيل عن حصار الخرطوم انظر: أحمد إبراهيم أبو شوك، "تحرير الخرطوم: أبعاده الأيديولوجية وتداعياته السياسية"، في: السودان: السُلطة والثراث، ج 2 (أم درمان: مركز عبد الكريم ميرغني الثقافي، 2009)، ص 77 - 86.

وأطلقت سراحهم من السجن⁽⁵⁹⁾. فكتب إليه المهدي في الشأن: "إن الجردة التي تعتمدونها ما لها وجه بوصولها لكم من سدّ الأنصار الطرق، فإن أسلمت وسلمت فقد عفونا عنك، وأكرمناك، وسامحناك في ما جرى، وإن أبيت فلا قدرة لك على نقض ما أراه الله ... وقد بلغني في جوابك الذي أرسلته إلينا أنك قلت إن الإنكليز يريدون أن يفدوك وحدك بعشرين ألف جنيه ... إن أردت أن تجتمع بالإنكليز فبدون خمسة فضة نرسلك إليهم. والسلام"⁽⁶⁰⁾.

واضح من هذه الرسائل المتبادلة، أنّ تعنت غردون وتهديده بقدم حملة الإنقاذ من الشمال كان واحدًا من الأسباب الرئيسة التي دفعت الأنصار إلى الانتقال من سياسة الحصار إلى الهجوم العسكري، الذي نفّذه المهدي وأنصاره في صبيحة السادس والعشرين من كانون الثاني/يناير 1885م، معلنين تحرير الخرطوم عنوةً، وقتل الجنرال غردون، الذي تشير بعض المصادر التاريخية إلى أنّ المهدي كان يريد حيا ليفدي به أحمد عرابي⁽⁶¹⁾. وتبين سياسة حصار الخرطوم التي أشرنا إليها، وقصة فداء غردون بعرابي، أنّ إستراتيجية المهدي العسكرية لم يكن هدفها الأوحده هو تدمير قوات العدو، والانتقام من الأعداء، بل كانت تسعى لفرض وضعٍ عسكري يُهيئ لها سبل النصر، إما بهزيمة العدو حربًا، أو استسلامًا. ولذلك نلاحظ أنّ الخطط الحربية التي وضعها الإمام المهدي وأعوانه كانت تهدف لتنفيذ إستراتيجية المهدي العسكرية، الرامية لقيام حكومة إسلامية على مبادئ الكتاب والسنة ومنشورات الإمام المنتظر، وبذلك يتم - حسب وجهة نظرهم - "إحياء نور الشريعة الذي أطفأه الأتراك بأفواههم"، ويطبق العدل المطلق الذي يرفع تحت ظلاله الوارفة "الذئب مع الغنم". هكذا كانت تطالع صاحب الدعوة المهدي التي لم تكن في تناغم مع الواقع الذي أعقب النصر في الخرطوم عام 1885.

خاتمة

تقودنا مفردات هذا البحث إلى خاتمة مفادها أنّ عقيدة المهدي العسكرية القائمة على فكرة المهدي المنتظر قد شكّلت إطارًا ثوريًا للدعوة المهديّة، ساهم في تعزيز بُعدها السياسي الرامي إلى قيام دولة إسلامية راشدة؛ وبُعدها الإستراتيجي العسكري المستند إلى استخدام آلة الحرب أداةً لإنجاز المشروع السياسي. وفي حيز هذين البُعدين استطاع المهدي أن ينفذ بجدارة معظم الخطط التي أشار إليها صن تزو في كتابه **فن الحرب**، من دون أن يكون له سابق علمٍ بذلك الكتاب، لكن كما أوضح زلفو، فإنّ علم المهدي في المجال العسكري كان مستمدًا من تعاليم الطرق الصوفية التي لازمها فترة من الزمان، وأدبيات الحروب الإسلامية التي قرأ عنها في المدونات القديمة. ويضاف إلى هذين المصدرين شخصية المهدي الكاريزمية التي حددت القيم المعيارية الفاصلة بين مفهومي "نحن" و"هم"، مؤسّسةً لنفسها

59 مكي شبكية، **السودان عبر القرون** (بيروت: دار الجيل، 1991)، ص 114.

60 المرجع نفسه، ص 350 - 351. و"خمس فضة" وحدة نقدية صغيرة.

61 هو أحمد الحسيني عرابي (1841 - 1911م)، قائد عسكري وزعيم مصري. وُلد في قرية هرية رزنة بمحافظة الشرقية، وبعد أن تعلم القرآن والعلوم الدينية التحق بالمدرسة الحربية، وارتقى في سلم الرتب العسكرية لمرتبة أميرلاي (عميد). اشترك في حروب الخديوي إسماعيل في الحيشة، وظهر في الساحة السياسية عندما تقدم مع مجموعة من الضباط المصريين مطالبين الخديوي توفيق بترقيتهم وتحسين أوضاعهم الوظيفية، وعزل رياض باشا رئيس مجلس النظار، وزيادة عدد الجيش المصري. لم يقبل الخديوي بهذه المطالب، وبدأ في التخطيط للقبض على عرابي وزملائه باعتبارهم خونة ومتآمرين. وبعد ذلك الاتهام قاد أحمد عرابي الثورة ضد الخديوي توفيق عام 1881، محتجًا على تغلغل النفوذ الأوروبي في شؤون مصر الداخلية، وضعف أداء حكومة رياض باشا. استجاب الخديوي لمطالب الثورة، فعين محمود سامي البارودي رئيسًا لمجلس النظار، وأحمد عرابي ناظرًا للجهادية. لكن بعد استقالة البارودي وتدخل القوات البريطانية في مصر عام 1882، احتجز أحمد عرابي في ثكنات العباسية مع نائبه طلبة باشا، حتى انعقدت محاكمته في 3 كانون الأول/ديسمبر 1882، وقضت المحكمة العسكرية بإعدامه؛ إلا أنّ حكم الإعدام خُفّف إلى النفي مدى الحياة بجزيرة سرديب (سيلان - سريلانكا حاليًا) في المحيط الهندي. ثم قام الأسطول البريطاني بنقله مع زملائه عبد الله النديم ومحمود سامي البارودي إلى جزيرة سرديب، حيث استقروا بمدينة كولومبو لمدة سبع سنوات. وبعدها نُقل مع محمود سامي البارودي إلى مدينة كاندي بذريعة خلافات دبت بين رفاق الثورة. وبعد أن اشتد عليه المرض في المنفى، عاد أحمد عرابي إلى مصر بعد أن قضى عشرين عامًا في سرديب. توفي بمصر عام 1911م. وعن قصة فداء غردون بأحمد عرابي انظر سلاطين باشا:

R. Slatin Pasha, *Fire and Sword in the Sudan: The Personal Narratives of Fighting and Serving the Dervishes, 1879 - 1895*, Translated by F.R. Wingate (London: Edward Arnold, 1899), p. 210.

أرضية تصادمية صلبة لإدارة الصراع الإستراتيجي العسكري مع التُّرك وأعدائهم؛ وذلك لتحقيق أهداف الثورة المرتبطة بإزاحة النظام القائم (الحكم التركي)، الذي وُصف بالكفر البواح وعدم الشرعية. لكن على المدى البعيد، يلحظ القارئ المتبصر في أدبيات المهديّة وإرثها التاريخي، أنّ فكرة المهدي المنتظر وثنائياتها التقابلية التي صاغت إستراتيجيتها العسكرية في مرحلة الثورة قد شكّلت ارتباطاً سياسياً وتحدٍ موضوعي، تعذر تجاوزه بعد موت صاحب الفكرة عقب تحرير الخرطوم. ومن جانب آخر، فإنّ الادعاء بأنّ قضاء الخليفة عبد الله في الناس هو قضاء الرسول ﷺ، وأنّ "جميع أفعاله وأحكامه محمولة على الصواب؛ لأنه أوتي الحكمة، وفصل الخطاب"، يُطهر المسلمين، وينقيهم من خبائث الدنيا⁽⁶²⁾، قد وضع الخليفة عبد الله في موضعٍ مريحٍ من الناحية النظرية؛ ولكنه في واقع الحال حوَّله إلى حاكم ثيوقراطي، أدار الصراع مع خصومه السياسيين الذين ناصبوه العداء في إطار مفهومي "نحن" و"هم" الإقصائيين، وبذلك فتّت فكرة البناء القومي للدولة المهديّة التي وضع المهدي لبنائها في قدير. وإذا انتقلنا إلى الصعيد الخارجي، نلاحظ أنّ عقيدة المهديّة العسكرية قد وضعت الدولة الناشئة في صراع مع جيرانها، استناداً إلى ادعاء المهدي بأنّ سيد الوجود ﷺ قد أخبره "بأن من شك في مهديته فقد كفر بالله ورسوله"، وبذلك أضحى جهاد الجيران (مصر وإثيوبيا) الذين لم يؤمنوا بمهديّة محمد أحمد بن عبد الله فرض عين على الدولة الناشئة. ولذلك أضحت السياسة الخارجية للدولة أكثر تعقيداً عندما وعد المهدي أنصاره بأنه سيصل في البيت الحرام، والمسجد النبوي، ومسجد القاهرة، وبيت المقدس، ومسجد العراق، ثم الكوفة⁽⁶³⁾، مشيراً إليهم ضمناً أنّ المهديّة ستوحّد الشنّة والشيعة، وتقضي على الخلافة العثمانية، ثم تقيم على أنقاضها نظام حكم جديد في العالم الإسلامي. كل هذه التوجهات العقديّة المنطلقة من فكرة المهدي المنتظر ومثيلاتها، قد عقّدت المشهد السياسي في السودان، وعرقلت بناء الدولة المهديّة مؤسسياً، وأخيراً شكّلت طرفاً من الأسباب التي ساهمت في القضاء عليها عام 1898.



62 لمزيد من التفاصيل انظر، خطاب من المهدي إلى كافة عباد الله، 17 ربيع أول 1300هـ - 72 كانون الثاني/يناير 1883م، أبو سليم (تحقيق)، الآثار الكاملة، ج 1، ص 237 - 241. يقرأ نص الخطاب هكذا: "... إن الخليفة عبد الله هو مني وأنا منه، وقد أشار إليه سيد الوجود ﷺ فتأدبوا معه كتأدبكم معي، وسلموا إليه ظاهراً وباطناً كتسليمكم لي، وصدقوه في قوله ولا تتهموه في فعله، فجميع ما يفعله بأمر النبي ﷺ، أو بأذن منا، لا بمجرد اجتهاد منه، ولا هو عن هوى، بل هو نائب عنه في تنفيذ أمره ﷺ والقضاء بإشارته، فإن فعله بكم، وحكمه فيكم بحسب ذلك. وأعلموا يقيناً أن قضاءه فيكم هو قضاء رسول الله ﷺ. [...] وأعلموا أنّ جميع أفعاله وأحكامه محمولة على الصواب؛ لأنه أوتي الحكمة وفصل الخطاب، ولو حكمه على قتل نفس منكم، أو سلب أموالكم، فلا تتعرضوا عليه، فقد حكمه الله عليكم بذلك ليظهركم ويزكيكم من خبائث الدنيا لتنصق قلوبكم وتقبلوا إلى ربكم".

63 لمزيد من التفاصيل انظر، القول المنسوب للمهدي والذي يقرأ هكذا: "بشرني رسول الله ﷺ في الحضرة النبوية، وقال لي: كما صليت في الأبيض تصلي في الخرطوم، ثم تصلي في مسجد بربر، ثم تصلي ببيت الله الحرام، ثم تصلي في مسجد يثرب، ثم تصلي في مسجد مصر، ثم تصلي ببيت المقدس، ثم تصلي في مسجد العراق، ثم تصلي في مسجد الكوفة". أبو سليم (تحقيق)، الآثار الكاملة، ج 5، ص 458.

قائمة المصادر والمراجع

المراجع العربية

- أبو سليم، محمد إبراهيم. **الحركة الفكرية في المهدي**. الخرطوم: مطبعة جامعة الخرطوم، 1970.
- _____ **تاريخ الخرطوم**. بيروت: دار الجيل، ط3، 1970.
- _____ (تحقيق). **الآثار الكاملة للإمام المهدي**. 7 مجلدات. الخرطوم: دار جامعة الخرطوم للنشر، 1990 - 1994.
- أبو شوك، أحمد إبراهيم. "تحرير الخرطوم: أبعاده الأيديولوجية وتداعياته السياسية". في: **السودان: السُّلطة والتُّراث**. أم درمان: مركز عبد الكريم ميرغني الثقافي، 2009.
- _____ "منهجية التشريع المهدي في السودان (1881-1885)". **كتابات سودانية**. العدد 7. القاهرة: أذار/ مارس 1999.
- القدال، محمد سعيد. **الإمام المهدي محمد أحمد بن عبد الله (1844-1885): لوحة لثائر سوداني**. الخرطوم: مطبعة جامعة الخرطوم، 1985.
- تزو، صن. **فن الحرب**. تقديم وتعليق أحمد ناصيف. حلب: دار الكتاب العربي، 2010.
- زلفو، عصمت حسن. **كرري**. أم درمان: مركز عبد الكريم ميرغني، ط4، 2012.
- شببكية، مكي. **السودان عبر القرون**. بيروت: دار الجيل، 1991.
- شقير، نعوم. **تاريخ السودان**. تحقيق وتقديم محمد إبراهيم أبو سليم. بيروت: دار الجيل، 1981.
- _____ **جغرافية وتاريخ السودان**. بيروت: دار الثقافة، 1967.
- فهيمي، عبد القادر محمد. **المدخل إلى دراسة الإستراتيجية**. عمان: دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، 2010.
- ميخائيل، يوسف. **مذكرات يوسف ميخائيل عن أواخر العهد التركي والمهدية في السودان**. تحقيق أحمد إبراهيم أبو شوك. أم درمان: مركز عبد الكريم ميرغني الثقافي، 2004.
- هولت، ب. م. **المهدية في السودان**. ترجمة جميل عبيد. بيروت: دار الفكر العربي، 1978.

المراجع الأجنبية

- Abdul Aziz, Abdul Ghani. "The Underlying Factor for the Ascendancy of Muslim Army over its Persian and Byzantine Counterparts (663 - 644 ACE): An Analysis Based on Sun Zi's Art of War". M.A. Thesis, International Islamic University - Malaysia, 2006.
- Abushouk, Ahmed Ibrahim. "The Ideology of the Expected Mahdi in Muslim History: The Case of the Sudanese Mahdiyya, 1881 - 1898". *Pakistan Journal of History and Culture*, vol. xxx1, 2009.

- Clausewitz, Carl von. *The Principles of War*. translated by Hans Wilhelm Gatzke. New York: Courier Dover Publications, 2003.
- Dekmejian, Richard H. and Margaret J. Wyszomirski. "Charismatic Leadership in Islam: The Mahdi of the Sudan." *Comparative Studies in Society and History* 14, no. 2, March 1972.
- Hill, Richard. *Biographical Dictionary of the Anglo-Egyptian Sudan*. London: Frank Cass, 3rd ed., 1967.
- Machiavelli, Niccolo. *The Art of War*. revised edition. Da Capo Press, 2001.
- Speelman, Patrick J. *War, Society and Enlightenment: The Works of General Lloyd*. Leiden: 2005.
- Pasha, R. Slatin. *Fire and Sword in the Sudan: The Personal Narratives of Fighting and Serving the Dervishes, 1879 - 1895*. Translated by F.R. Wingate. London: Edward Arnold, 1899.
- Tzu, Sun. *The Art of War*. Translated by Lionel Giles. London: The Puppet Press Classic, 1910.
- Weber, Max. *Economy and Society*. Translated by Gunther Roth and Claus Wittich. 3 volumes. New York: Bedminister, 1968.